ملاحظات
عن الكتابة المسمارية في إبلا

● د. عيد مرعي
قسم التاريخ — كلية الآداب
جامعة دمشق

أدت الحفريات الأثرية الإيطالية في تل مرديخ، الواقع على بعد ٥٥كم جنوب شرقي حلب مابين عامي ١٩٧٤ — ١٩٧٦، إلى الكشف عن أرشيف ملكي ضخم يتألف من أكثر من ستة عشر ألف رقيم وكسرة طينية، تؤرخ بالنصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد، حيث قامت في شمال سورية آنذاك مملكة مزدهرة قوية هي مملكة إبلا Ebla، التي تعد أقدم مملكة عامرة عرفتها سورية. وبذلك تغيرت النظرة السابقة إلى سورية القديمة في الألف الثالث قبل الميلاد، القائلة أنها منطقة نزاع دائم بين ملوك بلاد الرافدين وفراعنة مصر القديمة؛ فقد تبين نتيجة دراسة الأرشيف الملكي أن إبلا كانت مملكة قوية، تمتد حدودها من الفرات في الشرق حتى سواحل المتوسط في الغرب، ومن جبال طوروس في الشمال حتى سهول حمص في الجنوب. وقد تمتعت بقوة عسكرية وسياسية واقتصادية كبيرة مكنتها من مد نفوذها إلى بعض المناطق المجاورة ومن إقامة علاقات سياسية واقتصادية متينة مع العديد من مدن بلاد الرافدين وممالكها. يضاف إلى ذلك أن إبلا كانت مركزاً حضارياً متقدماً له إنجازاته الحضارية المتميزة. فقد عرف الإبلويون أول قاموس لغوي في التاريخ، دوّنوا فيه الكلمة السومرية أولاً وتحتها معناها في اللغة الإبلوية. وأحياناً كانت تذكر تهجئة الكلمة السومرية(١). وقد ارتبط هذا المركز الحضاري المتقدم بعلاقات ثقافية وثيقة مع مناطق جنوبي بلاد الرافدين، حيث كانت تقوم هناك في النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد حضارتان هما: الحضارة السومرية في بلاد سومر، والحضارة الكيشية(نسبة إلى مدينة كيش،حالياً: تل الأحيمر) في المنطقة الممتدة بين كيش وماري وماجاورهما.

وتجلت تلك العلاقات مابين إبلا وكيش في قيام اتصالات ثقافية قوية، نجد أبرز مثال عنها زيارة أستاذ الرياضيات من كيش إلى إبلا(٢). أما العلاقات مابين إبلا وبلاد سومر فتظهر بأوضح صورها في تبني الإبلويين نظام الكتابة المسماري لتدوين وثائقهم وسجلاتهم.

من المعروف أن الكتابة المسمارية ظهرت أول ماظهرت في بلاد سومر ، في أقصى جنوب بلاد الرافدين، في أواخر الألف الرابع وبداية الألف الثالث قبل الميلاد. ويعزى ذلك الاختراع الهام في تاريخ البشرية إلى السومريين. وقد مرت الكتابة المسمارية بمراحل تطور متعددة قبل أن تصل إلى الشكل المقطعي المعروف، وهذه المراحل هي(٣):

١—المرحلة التصويريةPICTOGRAPHY:

وهي أقدم مراحل الكتابة على الإطلاق، وفيها كان يتم التعبير عن الأشياء المراد التعبير عنها برسم صورها أو أجزاء منها. فصورة المحراث تعني محراثاً، وصورة السمكة تعني سمكة، وصورة السنبلة تعني شعيراً، ورأس الثور يعنى ثوراً، ورأس الإنسان يعنى إنساناً.

وتمثل أقدم شواهد هذه المرحلة في النصوص المكتشفة في أوروك—الطبقة— الرابعة بUruk IV B، والبالغ عددها أكثر من ألف لوح يرقى تاريخها إلى نحو ٣٣٠٠ق.م. وهي في معظمها نصوص اقتصادية وإدارية قصيرة تتعلق بحساب واردات المعابد(٤)، لأن المعبد في سومر كان في تلك الفترة مركزاً للنشاط السياسي والاقتصادي والاجتماعي بالإضافة إلى الديني. ومن شواهد هذه المرحلة في سورية لوحان صغيران من الطين غير المشوي اكتشفا في تل براك عام ١٩٨٤(٥)، وبضعة ألواح في حبوبة كبيرة(٦).

٢—المرحلة الرمزيةIDIOGRAM/LOGOGRAM:

وقد تطورت الصورة فيها إلى رموزأو اشارات مسمارية لاتعبر فقط عن المعاني الأصلية للصورة الأصلية المرسومة بل أيضاً عن أفكار ومعان لها علاقة بالمعنى الأصلي للشيء المرسوم. فالرمز الدال على الشمس لم يعد يعني الشمسَ فقط بل الضوء والنهار واليوم والحرارة، أي كل المعاني المرتبطة بالمعنى الأول.

وللتعبير عن معانٍ جديدة صارت تدمج إشارتان أو أكثر للحصول على معنى جديد مثل:

فم + خبز = يأكل KA + NINDA = KU

رجل + كبير = ملك LU + GAL = LUGAL

٣—المرحلة المقطعية أو الصوتية PHONETICS

وفيها أخذ كل رمز صوتاً معيناً يتناسب واللغة المستخدمة بغض النظر عن مدلوله الصوري. وكان كل رمز يحمل عدة معان، ويمكن أن يؤلف كلمة أو جزءاً من كلمة بإضافته إلى رمز أو رموز أخرى. وقد عرفت هذه المرحلة من مجموعة نصوص اكتشفت في أور، ويرقى تاريخها إلى نحو ٢٨٠٠ق.م.

لم ينحصر استخدام الكتابة المسمارية في بلاد الرافدين، بل شاع وانتشر في مختلف بقاع الشرق القديم بدءاً من الألف الثالث وحتى الألف الأول قبل الميلاد. ودونت بها لغات متعددة كالسومرية والإبلوية والأكادية والعيلامية والحثية والحورية والأورارتيه.

وقد استخدم سكان إبلا في شمال سورية هذا النظام الكتابي في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد، لكتابة لغتهم وتدوين وثائقهم بطريقة تشبه الطريقة المستخدمة في مدن جنوب بلاد الرافدين.

فنصوص إبلا تظهر تشابهاً كبيراً من حيث الكتابة مع النصوص المكتشفة في موقعي (شوروباك القديمة) وأبو صلابيخ في جنوب بلاد الرافدين، وهما موقعان سومريان تظهر في نصوصهما المكتشفة تأثيرات كيشية واضحة. وقد دونت بالخط المسماري بثلاثة أساليب هي(٧):

١—نصوص كتبت بإشارات مقطعية فقط، ويلاحظ ذلك بشكل أساسي في بعض التعاويذ والنصوص الدينية كما في النص التالي(٨):

du11- ga	قرار
en	الملك
gis-ba-tuku	سمع
dKu-ra	الإله كورا
wa	و
(d) UTU	إله الشمس
gis-ba-tuku	سمع
wa	و
gis-ba-tuka	سمع
DA-DA	الإله هدد
WA	و
gis-ba-tuka	سمع
dingir-dingir	(كل)الآلهة

٢—نصوص كتبت بشكل رئيسي بإشارات مقطعية مع بعض الرموز(اللوغوغرامات واللغوغرام,LOGOGRAMإشارة مسمارية تمثل كلمة واحدة) مثل الرسائل والنصوص التاريخية والمعاهدات والنماذج المختلفة من المؤلفات الأدبية، ونورد فيما يلي كمثال على ذلك رسالة إركب داموIrkab-Damu ملك إبلا إلى زيزي Ziziملك خمازي، وهي منطقة تقع إلى الشرق من بلاد الرافدين، والمتعلقة بإقامة حلف بين المملكتين(٩).

الوجه الأمامي:

I	1)	en-ma	هكذا
	2)	i-bu-bu	إبو بو
	3)	agrig	ناظر
	4)	é	قصر
	5)	en	الملك
	6)	li-na	إلى
	7)	sukkal-dug-<si-mà>	الرسول(اسمع)
	8)	an-ta	أنت
	9)	ses	أخ(ـي)
	10)	u	و
II	1)	an-na	أنا
	2)	ses	أخ(ـوك)
	3)	lu-ses	(لك) رجل أخ
	4)	mi-nu-ma	ما
	5)	al-du11-ga	ترغب
	6)	si	ويخرج
	7)	Ka	من فمك
	8)	an-NA	أنا
	9)	in-na-sum	أعطي
	10)	u	و
III	1)	an-TA	أنت

	2)	al-du11-ga	الرغبة
	3)	si	الخارجة(من فمي)
	4)	i-na sum	تعطي(تلبي)
	5)	BAR-AN-SA6	جنوداً جيدين
	6)	hi-mu-tum	أرسلْ إليّ، فأنا أصلي:
	7)	an-tà	أنت
	8)	ses	أخ(ـي)
	9)	u	و
	10)	an-na	أنا
	11)	ses	أخ(ـوك)
IV	12)	10gis ÉS	عشر قطع أثاث خشبي
	1)	2gis asud- gis ÉS	حليتان
	2)	i-bu-bu6	(أنا) إبوبر
	3)	in-na-sum	أعطيتهم
	4)	sukkal-du8	إلى الرسول
	5)	ir-kab-da-mu	إركب دامو
	6)	EN	ملك
	7)	eb-laki	إبلا
	8)	ses	أخو
	9)	zi-zi	زيزي
V	10)	en	ملك
	1)	HA-MA-ZI-IM^{Ki}	حمازي
	2)	zi-zi	زيزي
	3)	en	ملك
	4)	ha-ma-zi-imki	حمازي
	5)	ses	أخو
	6)	ir-kab-da-mu	إركب دامو
	7)	en	ملك
	8)	eb-laki	إبلا
VI	1)	u	و
	2)	en-ma	هكذا
	3)	ti-ra-il	تيرا—إل
	4)	dub-sar	الكاتب
	5)	(i)k-tub	كتب
	6)	li-na	وإلى
	7)	sukkal-du8	رسول
	8)	(zizi)	زيزي
	9)	i-na-sum	الوجه الخلفي:
I	1		أعطي(الرسالة)

٣—نصوص كتبت بشكل رئيس بعلامات رمزية(لوغوغرامات) ووشيت بإشارات مقطعية مثل النصوص الإدارية. وقد استخدم اللوغوغرام بشكل رئيس للتعبير عن أعداد ومقاييس وبضائع مختلفة وتسميات خاصة بالممارسات الإدارية(دخول بضائع وخروجها واستلامها..إلخ)

علماً ان معظم نصوص إبلا إدارية تتعلق بإدارة القصر الملكي. أما الاشارات المقطعية فقد استخدمت للتعبير عن أسماء أعلام وضمائر وظروف وأدوات جر وبعض الأعداد (مئة، ألف، عشرة آلاف) وأسماء بضائع ليس لها مقابل لوغوغرامي في اللغة السومرية.

وقد قاد هذا الاستخدام المكثف للوغوغرامات في نصوص إبلا بعض الباحثين إلى الافتراض أن معظم نصوص إبلا كتبت باللغة السومرية وليس باللغة المحلية المعروفة حالياً بالإبلوية(١٠).

غير أن الدراسات اللاحقة والدقيقة لأرشيف إبلا، وبخاصة تلك التي قام بها عالم الدراسات الآشورية المعروف Gelb، أظهرت أن القسم الأعظم من نصوص إبلا كُتب باللغة الإبلوية وليس السومرية. ويقتصر ماكتب بالسومرية على المؤلفات الأدبية والنصوص المدرسية المستوردة من الخارج(١١).

من الجدير بالذكر أن الأساليب الثلاثة المذكورة لاستخدام الخط المسماري في إبلا كانت معروفة في المصادر الرافدية العائدة إلى الألف الثالث قبل الميلاد. ويشبه توزيع اللوغوغرامات والمقاطع في نصوص إبلا الادارية أو مطابق لمثيله في النصوص الإدارية الرافدية من العصرين ماقبل الشاروكيني (٢٧٠٠—٢٣٥٠ق.م) والشاروكيني(٢٣٥٠—٢٢٨٤ق.م).

غير أن كتّاب إبلا استخدموا هذه الأساليب لكتابة لغة إبلا ونصوصها بشكل مختلف تماماً عن استخدامها لكتابة أية لهجة أكادية أو لغة أخرى، وينطبق هذا الشكل بشكل خاص على المعاهدات والنصوص التاريخية التي أثارت قراءتها وترجمتها كثيراً من المشاكل والصعوبات.

ففي الرسالة من إركب دامو ملك إبلا إلى زيزيZiziملك خمازي، نقرأ مايلي:

أنت شيش و أنا شيش ومعناها الحرفي : أنت أخ وأنا أخ، غير أن ترجمة بيتيناتو، أنت أخ(ـي) وأنا أخ(ـوك) : صحيحة فهذا هو المعنى المقصود.

وتكتب كلمة أخ الواردة في هذه العبارة الآكادية القديمة:

«أخي وأخوك»، (أو ربما شيشي أو شيشخي، وشيشكا)(١٢).

هناك أيضا صفة أخرى للكتابة المسمارية التي استخدمت في إبلا لم تعرف خارجها في الفترات التاريخية الأولى وهي ربط الشكل السومري للفعل مع ضمير ملكية إبلوي كما في المثالين التاليين(١٣):

I.NA.SUM-kum: هو أعطى لك.

I.NA. SUM-sum: هو أعطى له.

فالفعل السومري إناسوم: أعطى اتصل به ضمير الملكية المتصل للمخاطب المفرد المذكر في حالة الجر في المثال الأول، وضمير الملكية المتصل للغائب المفرد المذكر في حالة الجر أيضاً في المثال الثاني.

نخلص مما سبق إلى القول أن سكان إبلا استخدموا الكتابة المسمارية بشكل يتناسب مع خصائص لغتهم وصفاتهم، كما هي الحال حالياً في استخدام الحروف العربية لكتابة اللغة الفارسية بشكل يلائم تلك اللغة، واستخدام الحروف اللاتينية لكتابة العديد من اللغات الأوربية الحديثة بشكل يتناسب مع قواعد تلك اللغات وصفاتها.

الهوامش:

★ألقي هذا البحث في الندوة الاقليمية الأولى عن الكتابات في بلاد الشام حتى ظهور الاسلام التي نظمتها جامعة اليرموك بالاردن مابين٢٥—٢٧ / ٤/ ١٩٩٤ .

١— Pettinato,G.,the Archives of Ebla, an empire inscribed in clay, Garden City, New york 1981,P.235.ff

٢— -Ibld.,P.239.

٣—حول نشوء الكتابة المسمارية وتطورها أنظر: مرعي، عيد، الكتابة والتعليم في بلاد الرافدين، دراسات تاريخية ٤١—٤٢، ١٩٩٢ ، ص٧ومايليها.

٤—أنظر حول نصوص أوروك:

Falkenstein, A., Archaische Texte aus Uruk(Ausgrabungen der deutschen Ftorschungsgemeinschaft in Uruk-Warka, Band2) , Berlin 1936 .

٥— Finkel, I. L., Inscription from tell Brak 1984, in: Iraq 47(1985), P.187.

٦— -Strommenger, E., Habuba kabira, eine stadt vor 5000 Jahren , Mainz am Rhein 1980,S.63 ff.

٧— Gelb, I. J. Ebla and the Kish Civilization, in: L. Cani(ed.) La lingua di EBLA NAPOLI, 1981, P11.ff.

٨— -Pettinato, G, The archives of Ebla, an empire inscribed in clay, Garden City , New York 1981, P.246 ff.

٩—ترجم بيتيناتو هذه الرسالة في كتابه:

The arvhices of Ebla, P. 97-98p Ebla Nuovi orrizzonti della Storia, Milano, 1986; P. 397. 398 .

١٠— Pettinato , G., Gli archivi Reali di Tell Mardikh-Ebla: Reflessioni e prspettive, in: Rivista Biblica Italiana 25(1977), p. 238; Biggs, R, D ., the Ebla Tablets, an Interim prespective, in Biblical archaelogist 43 (1980), P. 83.

١١— -Gelb, op. cit., P.11,13ff;

١٢— ibid, P. 17.

١٣— ibid, P. 18.